

المؤلفات الطبية بجلال الدين السيوطي

د. محمد زهير البابا

لمحة موجزة عن سيرته الذاتية :

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد...
الخضيري السيوطي الشافعي(*) .

كانت ولادته في مستهل رجب عام ٨٤٩هـ / تشرين الأول ١٤٤٥م في القاهرة
حيث كان أبوه يدرس الفقه في المدرسة الشيعونية .

نشأ يتيماً ، فقد توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر . وأسندت
وصايته الى أحد مشايخ الصوفية من أصدقاء أبيه ، وقد حفظ القرآن وله
من العمر ثماني سنوات .

شرع الاشتغال بالعلم عام ٨٦٤هـ فقرأ على الشمس السيرا في صحيح مسلم ،
ومنهاج النووي ، ومنهاج البيضاوي ، والشفاء وألفية ابن مالك ، كما قرأ
على غيره كثيراً من المؤلفات الدينية في أصول الفقه وشرح العقائد .

أما العلوم المتصلة بأمور الدنيا والتي اهتم بها السيوطي فكان منها علم
الفرائض والحساب ، قرأها على العلامة الشهاب الشارماجي ، وقرأ علم التوقيت
على محمد الميقاتي ، والطب على محمد بن ابراهيم الدواني .

(*) ذكر السيوطي في مقدمة كتابه (حسن المعاصرة في تاريخ مصر والقاهرة) ترجمة كاملة لسيرته الذاتية .

وروى الشعراني في طبقاته الصغرى أن أستاذة السيوطي قد أخذ العلم على ستمائة شيخ . كما ذكر تلميذ آخر للسيوطي وهو الداودي ترجمة أسماء شيوخ أستاذة ، إجازة وقراءة وسماعاً ، مرتبين على حروف المعجم ، فبلغت عدتهم إحدى وخمسين نفساً .

كان السيوطي من مريدي الصوفية ، وقد دافع عنها وعن أصحابها في مؤلفاته . ولكنه كان لا يدافع إلا عن المطعون في عقائدهم وسلوكهم ، من الذين أجمع أهل العلم على كفرهم وزندقتهم ، كابن عربي وابن الفارض . ويقول السيوطي أنه بعد التطلع من علوم الظاهر اشتغل بتحصيل علوم الباطن ، والاستفادة من أهلها ، بالصحبة والخدمة والسلوك ، وحسن الاعتقاد والإخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل .

ومن اعتقاده الذي ألّب عليه العلماء في عصره أنه ادعى رؤية الرسول في اليقظة والنام ، وله رسالة في ذلك . وهذا أمر لم يحصل لصحابة الرسول (ﷺ) وهم أفضل الخلق ، حتى يحصل لمن هو دونهم . وإنما هي تخيلات طرأت على كثير من المتصوفين والزهاد في عصر الانحطاط العلمي .

بدأ السيوطي دراسته في القاهرة ، وأتمها متنقلاً بين بلدان مصر ، وحاجاً إلى مكة المكرمة سنة ٨٦٩ هـ . ثم عاد إلى القاهرة واشتغل ببذل المشورة في المسائل الفقهية . وتولى بعدها منصب التدريس في المدرسة الشينونية عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م . ولما بلغ الأربعين من عمره أعفي من التدريس ، فاعتزل الناس ، واعتكف في دار للعبادة (خانقاه) في جزيرة النيل ، حيث انصرف للتأليف والتصنيف .

كان السيوطي عفيفاً كريماً غني النفس ، متباعداً عن ذوي الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير ولا وزير ، قانعاً برزق ضئيل . وكان بعض الأمراء والوزراء والأغنياء يزورونه ، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها . وروي أن السلطان الغوري أرسل له مرة خصياً وألف دينار . فرد الدينار وأخذ الخصى ثم أعتقه . وقال لرسول السلطان : لا تعد تأتينا بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك .

الصفات المميّزة لمؤلفات السيوطي :

لقد نُسب إلى العالم السيوطي عدد كبير من المؤلفات، ملأت عناوينها صفحات عديدة من فهارس المكتبات . وكتبه من الكثرة والتنوع بحيث يتعذر على الانسان أن يصدّق أنها من تصنيف عالم واحد .

ولكن حينما يقوم الباحث بتدقيق تلك المؤلفات ، يجد أن أكثرها رسائل قصيرة لا يتجاوز عدد أوراقها أحياناً أصابع اليد . ولكن مما يلفت النظر في مواضيعها أنها تدل على نشاط عقلي كبير ، عند رجل يُحب أن يطرق مواضيع ترتبط بحياة العامة والخاصة ، كما أنها تحمل عناوين غريبة ومسجّعة ، نذكر منها ما يلي :

الاسفار عن قلم الأظفار - بلوغ المآرب في قص الشارب - الوديك (الدهن) في فضل الديك - بلوغ المآرب في أخبار العقارب - ما رواه الواعون في أخبار الطاعون - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة - حصول الرفق باصول الرزق - في مقر الروح بعد الموت - مشتهى العقول في منتهى النقول - الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف - جرّ الذيل في علم الخيل ...

وإلى جانب هذه الرسائل الصغيرة يوجد للسيوطي مؤلفات ضخمة ، يبلغ عدد صفحات كل منها عدة ألوف أحياناً منها :

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (تاريخ) - الأشباه والنظائر (في الفقه) الأشباه والنظائر (في النحو) - المزهري في علوم اللغة - الجامع الكبير والجامع الصغير (في الحديث) ...

نشأ الامام السيوطي في عائلة اشتهرت بالعلم . ولما توفي والده باكراً رعاه أحد مشايخ الصوفية . وحينما شبّ ونضج كانت إقامته في مؤسسة علمية دينية خيرية تدعى الشيوخونية . وكان فيها مكتبة عامرة ، يرتادها كثير من العلماء وطلبة العلم . تأثر السيوطي كثيراً بهذا المحيط العلمي المتدين ، وجعله من المريدين والمدافعين عن المتصوفين . وحينما أتهم ، من قبل أهل العلم ، بالكفر والزندقة ، بعض أعلام التصوف ، كابن عربي وابن الفارض ، وقف

السيوطي يدافع عنهما في رسالتين وهما « تنبيه النعبي إلى تبرئة ابن عربي »
و « قمع المعارض في نصرة ابن الفارض » .

عدد السيوطي ، في أحد مؤلفاته ، أسماء العلوم الدينية واللغوية
والانسانية ، التي رزق نعمة التبخر بها . وصرّح بعجزه عن إدراك قضايا
الحساب ، وكراهيته لعلم المنطق ، بعد أن قرأ بعضاً مما ألّف فيه ، وخاصة
المقدمة في المنطق (لفورفوروس الصوري) .

ومن مزايا السيوطي أنه ذكر أسماء جميع الأساتذة العلماء ، الذين أخذ
عنهم بعض العلوم الأساسية والتطبيقية ، ففي العلوم المتعلقة بالحساب قرأ الميقات
أيضاً على الشيخ مجد الدين اسماعيل بن السباع . وقرأ الطب على محمد بن
إبراهيم الدواني ، وكان طبيباً قدم إلى القاهرة من بلاد الروم .

مؤلفات السيوطي الطبية :

لقد جرت العادة في البلاد العربية والاسلامية ، وخاصة أوائل الحكم
العباسي ، أن يكون الطبيب ملماً بالفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات ،
قبل أن يتفرّغ لدراسة الطب وممارسته أو التأليف به .

ولكن في أواخر العصر العباسي ، وخاصة بعد المصائب التي حلت بالبلاد
العربية بتوالي الحروب الصليبية ، وغزوات المغول والتتر ، فقد انصرف
رجال العلم إلى التعمق بالفقه الاسلامي ، ودراسة علوم اللغة العربية والتاريخ ،
بصورة عامة . ونظراً لأن الموسوعات الطبية ، التي ظهرت بين القرنين الرابع
والخامس للهجرة ، كالحاوي والمنصور لأبي بكر الرازي ، وكامل الصناعة
لعلّمي بن العباس الاهوازي ، والقانون لابن سينا ، قد بلغت الذروة والاحاطة
والكمال في علوم الطب ، لذلك وقف طلاب العلم عاجزين عن الاتيان بمثلها ،
واكتفوا بتلخيص بعضها ، مثال ذلك كتاب (موجز القانون) ، أو اجزاء
واختصار بعض أقسامها ، مثل كتاب (شرح تشريح القانون) ، وكلاهما
من مؤلفات ابن النفيس .

إن العمل بالطب التقليدي ، المقتبس عن الطب اليوناني والهندي ، قد
تراجع العمل به في البلاد العربية ، خلال القرون المظلمة التي سادت شرق العالم

العربي ، وذلك بسبب فقدان العقاقير المستوردة من الصين والهند وفارس ، أو لغلاء أثمانها . لهذا كان على الأطباء ، وأكثرهم من الفقهاء وعلماء الدين ، أن يكتفوا بوصف العقاقير المحلية . أما مراجعهم فكان أهمها كُتب الطب النبوي ، ورسالة براء ساعة ، وكتاب من لا يحضره طبيب وكلاهما للرازي ، وكتاب طب الفقراء والمساكين لأحمد بن إبراهيم بن الجزار القيرواني ، وكتاب تسهيل المنافع لابراهيم الأزرق .

من المعلوم أن المريض المؤمن ، حينما يعجز الأطباء عن شفاؤه ، يلجأ إلى الوسيلة الوحيدة التي تمنحه الهدوء وراحة النفس ، وتهبه القدرة على تحمل آلام المرض ، وهي التوسل إلى القدرة الإلهية التي تخفف عنه الألم والعذاب .

إن أول مؤلفات عربية ، ظهرت في البلاد الإسلامية ، وجمعت بين الطب المادي والطب الروحاني والنفسي ، تلك التي عرفت باسم الطب النبوي . ويعود الفضل في تأليف أول كتاب حمل هذا الاسم إلى الشيخ الفقيه المتطبب أبي مروان عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي الألبيري القرطبي ، المتوفى عام (٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م) . ويضم هذا الكتاب بعض الأحاديث الشريفة التي رويت عن رسول الله (ﷺ) ، والتي نهى فيها عن الايمان بالتمائم والسحر . وأوصى باستعمال الماء البارد في علاج الحمى ، كما أوصى باستعمال بعض النباتات الطبية ، مما ينمو في الجزيرة العربية ، كالخرمل والحبة السوداء والحلبة والحنة والعسل ونهى عن استعمال الكي والفصد إلا عند الضرورة .

أما في شرق العالم العربي والإسلامي فقد ظهرت عدة مؤلفات في الطب النبوي ، كان من أوائلها كتاب منسوب للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، المتوفى عام (٤٣٢ هـ / ٩٤١ م) ، ومن أواخرها كتاب المنهل السوي في الطب النبوي للعالم جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

لم يعرف عن السيوطي أنه مارس الطب ، ولكن شغفه بالمطالعة والتأليف والتلخيص شجعه على وضع بعض المؤلفات الطبية ، وشبه الطبية . كما نُسب إليه كتاب مشهور جمع بين الطب التقليدي والطب النبوي ، بالإضافة إلى طب العرافين والمشعوذين . وفيما يلي أسماء أهم تلك المؤلفات :

- آ - المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي •
- ب - غاية الاحسان في خلق الانسان •
- ج - الرحمة في الطب والحكمة (المنسوب اليه) •
- د - ما رواه الواعون في أخبار الطاعون •
- هـ - اتمام الدراية لقراء النقاية •

آ - كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي :

لهذا الكتاب مخطوط جيد وفريد ، كان محفوظاً في المكتبة الظاهرية ، ونقل إلى مكتبة الأسد بدمشق ، حيث حفظت تحت رقم (٣١٢٧ طب) • وهو من أوقاف الوزير محمد باشا والي الشام سنة ١١٩٠ هـ • عدد الأوراق (٩٩) ، القياس ٢١×١٥ سم - المسطرة (٢١) سطرأ ، الخط نسخ معتاد ، المتن بمداد أسود والعناوين بمداد أحمر • وجاء في آخره « نجز الكتاب المسمى بالطب النبوي على يد أحمد بن عبدالحى بن علي الحسيني القدسي ، وذلك في محرم سنة (١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) • وقد ترجم للفرنسية من قبل N. Berron (1860) وإلى الانكليزية من قبل C. Elgood (1962) ، وطبع في القاهرة سنة ١٨٧٠ ثم سنة ١٨٨٧ (فهرس حمارنة) •

مقدمة النص المحقق :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« الحمد لله حمد الشاكرين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خير الغافرين ... »

وبعد فهذا كتاب جمعت فيه الأحاديث الواردة في الطب ، مرتبة على الأبواب • وأوردت فيه جميع ما ورد ، صحيحاً وحسناً وضعيفاً ، لينتفع به أولو الألباب • وتركت كثيراً مما أورده المصنفون في هذا الفن ، لاشتغاره بتفرد وضاع كذاب • وضمت إليه من الآثار الموقوفة والمقاطع ما يستجد ويستطاب • وعقبت كل حديث بكلمة شارحة لمقصده ، لتتم فائدته للطلاب •

ورتبته ترتيب الموجز في المقاصد والأبواب . وسميته المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي . والله ربي لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب .»

يتألف كتاب المنهج السوي من عدد من الأبواب ، غير المرقمة ، ولم يشر إليها بفهرس ، ولكن دونت عناوينها بالأحمر ، وهي ضمن المتن . وكعادة السيوطي في مؤلفاته فإنه يذكر اسم كل من اقتبس شيئاً من مؤلفاته ، كما يذكر الأسناد ، عندما يورد حديثاً شريفاً ، وفيما يلي أمثلة على ما جاء في تلك الأبواب :

١ - تقسيم الطب :

قال الخطابي « اعلم أن الطب على نوعين : الطب القياسي ، وهو طب اليونان الذي يستعمل في أكثر البلدان ، وطب العرب والهند وهو طب التجارب . وأكثر ما وضعه النبي (ﷺ) إنما هو على مذهب العرب ، إلا ما خُصَّ به العلم النبوي من طريق الوحي ، فإن ذلك يخرق كل ما تدركه الأطباء وتعرفه الحكماء . وكل ما فعله أو قاله في أعلى درجات الصواب ، عصمه الله أن يقول إلا صدقاً ، وأن يفعل إلا حقاً » .

وقال ابن القيم « كان علاجه (ﷺ) للمرضى ثلاثة أنواع : أحدها بالأدوية الطبيعية ، والثاني بالأدوية الالهية ، والثالث بالمركب من الأمرين » .

٢ - ذكر ابتداء الطب :

أخرج البزاز في سنده ، والطبراني في الكبير ، وابن السني وأبو نعيم ، كلاهما في الطب النبوي ، عن النبي (ﷺ) ، أن نبي الله سليمان عليه السلام كان إذا قام يصلي رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا ، فيقول لأي شيء أنت ؟ .. فتقول لكذا . فإذا كانت لدواء كتبت ، وإن كانت لغرس غرست » .

وعُدَّ السيوطي بعد ذلك عدة روايات ، مختلفة الاسناد ، لم تخرج
عن هذا المعنى .

٣ - ذكر أن لكل داء دواء ، وضرورة اللجوء إلى المداواة عند حدوث المرض :

« أخرج البخاري والنسائي وابن ماجه وأبو نعيم . . . قال رسول الله (ﷺ)
ما أنزل الله داءً إلاَّ وأنزل له شفاء »

وهناك أحاديث كثيرة ، ذكرها السيوطي ، رويت عنه (ﷺ) منها أن
بعض المسلمين جاؤوا إليه وقالوا : « يا رسول الله هل علينا من جناح أن
لا نتداوى؟ » فقال « تداووا عباد الله ، فإن الله لم يضع داءً إلاَّ وضع له دواء ،
غير داء واحد الهرم » . وذكر بعضهم هذا الحديث بشكل آخر : قال (ﷺ) « تداووا
فإن الله لم يخلق داءً إلاَّ خلق له شفاءً إلاَّ السأم ، وهو الموت » . ويقال أن هذا الحديث
رواه أبو هريرة فقال : أصيب رجل من الأنصار يوم أحد ، فدعا له الرسول (ﷺ)
طبيين كانا بالمدينة ، فقال عالجاه . فقالا : يا رسول الله إنما كنا نعالج ونحتال
في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام فما هو إلاَّ التوكل . فقال « إن الذي أنزل الداء
أنزل الدواء ثم جعل فيه شفاء » فعالجاه فبرئ .

٤ - ذكر الأركان الأربعة والأخلاق الأربعة :

وفيه رواية عن وهب بن منبه قال :

« وجدت في التوراة أنه قال (تعالى) : حين خلقت آدم ركبت جسده من
أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثه في ولده ، تنمي في أجسادهم إلى يوم القيامة :
رطب ويابس وسخن وبارد ، وذلك لأنني خلقتهم من تراب وماء ، ثم جعلت فيه
نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ،
وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح » .

٥ - ذكر الأعضاء :

يقول السيوطي : « قال الأطباء الغذاء جسم من شأنه أن يصير جزءاً من
بدن الانسان . وفي (كتاب) القانون الأعضاء أجسام متولدة من أول مزاج

الأخلاط . كما أن الأخلاط أجسام متولدة من أول مزاج الأركان .
والأعضاء قسمان : مفردة ومركبة ، فالمفردة هي التي يستوي فيها اسم الكل
والجزء ، كاللحم والعصب ، وتسمى متشابهة الأجزاء .

والمركبة بخلافها كالوجه واليد . وأول الأعضاء المتشابهة الأجزاء العظم ،
وقد خلق صلباً لأنه أساس البدن ودعامة الحركات . ثم العصب - الرباطات
- الشريانات - الأوردة - الأغشية - اللحم ، وقد تكلم على كل منها على
انفراد .

٦ - ذكر تكون الأعضاء عن المنى :

أخرج البخاري ومسلم . . قال رسول الله (ﷺ) « إن خلق أحدكم يجمع في
بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم
ينفخ فيه الروح » . وفي هذا الباب أحاديث كثيرة منسوبة للرسول (ﷺ) ، وفيه
أقوال أخرى منسوبة لجالينوس أو ابن سينا .

٧ - ١٠ وفي هذه الأبواب ذكر السيوطي تشكّل وصفات : العظام - المفاصل
- العصب - العضل - العروق - الضوارب أو الشرايين - وغير
الضوارب أي الأوردة .

١١ - ١٢ ذكر الأعضاء الرئيسة والأعضاء الخادمة أو المرؤوسة - كما ذكر
الحواس الخمس وأقسامها .

١٣ - ذكر الأسباب الضرورية :

أورد السيوطي في هذا الباب بعض الأحاديث المتعلقة بحفظ الصحة ،
والمرتبطة بحياة الإنسان وهي : المسكن والهواء - المأكول والمشروب - الحركة
والسكون (في الجسد والنفس) - تدبير النوم واليقظة - الحمام - الجماع -
تدبير الفصول - في الفصد والاستفراغ - في الحمية والتدبير بالغذاء - الحجامة -
الفصد - الاسهال - القيء - الكي - الحقنة .

١٤ - في الأدوية والأغذية المفردة :

وردت في بعض أحاديث الرسول (ﷺ) أسماء عقاقير ونباتات تستعمل كغذاء أو دواء ، وقد جمعها السيوطي وأضاف إليها أسماء نباتات ومنتجات حيوانية مما يستعمل في الطب الشعبي . ثم قام بترتيبها حسب الحرف الأول من أسمائها ، وتكلم على تأثيراتها الدوائية بصورة موجزة . وفيما يلي أسماؤها :

أترج^(١) - إثم^(٢) - آس - إهليلج^(٣) - أرز^(٤) - بنفسج - حبة سوداء - حناء - خل - خمر - رمان - زبيب - زيت - سفرجل - سكر - سنا - سنوت^(٥) - سمسم - سمن - سواك^(٦) - شحم - صبر - عسل - فاغية^(٧) - فستق - لوز - قسط^(٨) بحري - قصب السكر - كباث^(٩) - كمأة - لبن .

١٥ - في الأدوية المركبة :

روى السيوطي عن ابن قيم الجوزية أنه قال : « كان من هديه (ﷺ) فعل التداوي في نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه . ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه (ر) فعل هذه الأدوية المركبة التي تسمى أقر باذين ، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات . وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه أو يكسر سَوْرته . وهذا غالب طب الأمم على اختلاف أجناسها ، من العرب والترك ، وأهل البوادي قاطبة . وإنما اعتنى بالمركبات الروم واليونان . وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء فلا يعدل إلى الدواء . ومتى أمكن (المداواة) بالبسيط فلا يُعدل إلى المركب » .

سعى السيوطي في كتابه المنهج السوي أن يوفق بين ما كتبه بعض الأطباء المشهورين ، أمثال أرسطو وجالينوس من اليونانيين ، وابن سينا وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي من المسلمين ، وبين ما كتبه بعض المؤلفين في الطب النبوي وخاصة أبا الحسن علي بن عبد الكريم طرخان الحموي (٦٥٠ هـ - ٧٢٠ هـ) - وشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية (ت - ٧٥٠ هـ) . لكنه عند بحثه في المداواة اقتصر كلامه على استعمال الأدوية البسيطة دون المركبة .

١٦ - القول في الأمراض المختصة بعضو عضو :

تكلم السيوطي عن أسباب وأعراض ومداواة بعض الأمراض المعروفة والمنتشرة في زمنه ، بصورة مختصرة وهي : الصداع بأنواعه - الدوار - العشى - النسيان - الفالج - الرمد - ضعف البصر - النزلة والزكام - وجع الأسنان والأضراس - وجع الصدر - ذات الجنب - الاستسقاء - وجع البطن - الاسهال - القولنج - دود البطن - عرق النسا - عرق الكلية - الباسور - الباه .

١٧ - الأمراض التي لا تختص بعضو دون عضو :

وهي الحمى بأنواعها - السل - بطاخر - الجروح - البثور - الجذام .
١٨ - القول في الكسر والوثي والخلع والسقطة والصدمة - القول في (الاصابة ب) العين والنظرة .

١٩ - التطيب بالمسك والقسط والريحان - استعمال النورة .

٢٠ - في التداوي في السموم - في علاج لدغ العقرب .

ب - كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان :

لقد ألفت في موضوع خلق الانسان، ووصف جميع أعضائه ، عدد كبير من علماء اللغة العربية ، منذ أوائل القرن الثالث للهجرة . وكانت مؤلفاتهم على شكل رسائل صغيرة ، ذكروا فيها مختلف أسماء تلك الأعضاء . ثم ظهر بعد ذلك معجمات المعاني ، والتي خصصت بعض الأبواب فيها للكلام على تلك الأعضاء بصورة أكثر تفصيلاً .

ويعد النضر بن شميل (ت-٢٠٨هـ) ، وأبو عبيدة (ت-٢١٠هـ) والأصمعي (ت-٢١٣هـ) من أوائل من وضع الرسائل في خلق الانسان . أما العالم جلال الدين السيوطي فيعد آخر اللغويين الذين ألفوا في هذا الموضوع وحفظ مؤلفات من سبقه . وقد ذهب الى ذلك الدكتور ابراهيم السامرائي ، في مقدمة تحقيقه لكتاب خلق الانسان للزجاج (ت-٣١٠هـ) ، فقال :

« لقد سلك السيوطي ، عند تأليفه كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان ، طريقته المنهجية التي سار عليها عند وضع مؤلفاته العديدة في مختلف العلوم والأدب والتاريخ ، وهي جمع وتصنيف وتنقيح مختلف الأبحاث الواردة في مؤلفات من سبقه ، مع ذكر أسماء تلك المراجع وأسماء مؤلفيها غالباً . وكان له بذلك فضل حفظ كثير من الكتب والرسائل المفقودة . ومن جملة المؤلفات التي اعتمدها السيوطي في كتابه خلق الانسان ، والتي تعتبر بحكم المفقودة ، كتاب خلق الانسان لمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) ، وكتاب خلق الانسان لأبي جعفر النحاس (ت - ٣٣٨ هـ) وغيرهما . »

لقد ذكر السيوطي ، في مقدمة كتابه « غاية الاحسان في خلق الانسان » الأسباب التي دعت له لتأليفه ، فقال : « من المهم للمتسمين بسمه العلم أن يحيطوا بأسماء أعضاء الانسان ، وأبعاضه وأجزائه وعوارضه ، ويحتوا على اللغات الواردة في ذلك » . ثم يقول بعد ذلك : « كان علماء الصدر الأول شديدي العناية به ، والتأليف فيه ، وقد انقرض (ذلك) منذ دهر مديد . وآل أمر الناس اليوم الى الجهل المحض ، حتى ترى أعيان الناس اليوم ، المشار اليهم بالعلم ، لا يعرفون من (أسماء) أعضاء الانسان إلا ما تعرفه النساء والأطفال ، من الأسماء المشهورة : كالرأس والعين واليد والرجل ، وما شاكل ذلك . وللو سئل الواحد منهم عن تمييز كوعه من بوعه لم يعرف ذلك . ولقد سئلت مرة عن الورك والفخذ هل هما اسمان لشيء واحد ، أو مسمّى هذا غير مسمّى هذا ؟ »

فحداني ذلك على الاهتمام بالاحاطة بخلق الانسان ، والتتبّع له من كتب اللغة والتأليف فيه . فاني على كثرة تصانيفي ، البالغة أربعمائة مؤلف ، لم أضع في اللغة شيئاً . فأحببت أن يكون لي فيه كتاب .

ومن عاداتي أن لا أوّلف إلا فيما لم أسبق إليّ مثله ، وأن استوعب فيما ألّف فيه . وهذا الشرط قد تعذر في فن اللغة ، إذ لا كتاب فيها بعد كتاب القاموس^(٩) ، ولا تأليف أوّعب وأجلّ منه . »

ثم ذكر السيوطي بعد ذلك أسماء بعض المراجع الأخرى التي اعتمدها ،
عند تأليفه كتاب غاية الاحسان وهي :

— كتاب خلق الانسان لمحمد بن حبيب (ت - ٢٤٥ هـ) .

— كتاب خلق الانسان لأبي اسحق ابراهيم بن سريّ الزجاج (ت - ٣١١ هـ) .

— كتاب خلق الانسان لأبي القاسم عمر بن محمد بن الهيثم العصافي .

لقد عدّ السيوطي تأليفه لهذا الكتاب نوعاً من الاحسان ، يقدمه للمسلمين
ليزدادوا إيماناً على إيمانهم بعظمة الخالق ، وشدة إتقانه تعالى لما خلق ،
وشرحاً لما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان في أحسن
تقويم » (سورة التين/ ٩٥) . كما حقق فيه محبته للغة العربية ، وذلك باحياء
وإشاعة مصطلحات طبية كاد أن يدرکہا النسيان .

يتألف كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان للسيوطي من مقدمة وثلاثة
وعشرين باباً . يتكلم مؤلفه في مقدمته عن الأسباب التي دعت له لتأليفه ، وقد مر
ذكرها . وفيما يلي العناوين الرئيسة لأبواب الكتاب :

- | | | |
|-----------------------------|------------------------------|--------------------------------|
| ١ - أسماء جملة الانسان (في) | ٥ - العين: أقسامها وصفاتها . | ١٤ - المنكب والكتف . |
| مختلف مراحل نموه ، | ٦ - الأذن . | ١٥ - العضد والذراع . |
| ذكراً كان أم أنثى) . | ٧ - الأنف . | ١٦ - الظهر . |
| ٢ - الصفات الظاهرة للانسان: | ٨ - الشفة . | ١٧ - الصدر والبطن . |
| الطول - القصر - الغلظ - | ٩ - الفم . | ١٨ - الجنبين . |
| الدماة . | ١٠ - اللسان . | ١٩ - الجوف . |
| ٣ - الرأس: أقسامه - أعلاه - | ١١ - الأسنان والأضراس . | ٢٠ - الذكر والفرج وما حولهما . |
| وسفله . | ١٢ - الناحية . | ٢١ - الاست والعجز . |
| ٤ - الوجه: أقسامه وصفاته . | ١٣ - العنق وما حوله . | ٢٢ - الوركين والفخذ . |
| | | ٢٣ - الركبة والساق والقدم . |

قام بتحقيق هذا الكتاب السيد مرزوق علي ابراهيم، ونشرته دار الفضيلة
بالقاهرة سنة ١٩٩١ .

ج - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، المنسوب لجلال الدين السيوطي :

لهذا الكتاب عدة طبعات جرت في مصر ، الأولى في المطبعة الشرقية سنة ١٣١١ هـ ، والثانية في المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٢ هـ ، والثالثة في دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩ هـ ، والرابعة في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٧ هـ . وفي سورية قامت مكتبة محمد الحلبي بتصوير الطبعة الأخيرة ، ونشرتها بدون تاريخ ، كما قامت مطبعة صبيح بالقاهرة بالعمل نفسه .

اطلعت على نسخة من هذا الكتاب ، الذي نشرته مكتبة الحلبي ، وهي تحمل في نهايتها ختماً باسم مطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر ، وهذا يدل على الأصل المصورة منه .

يقول مؤلف هذا الكتاب في مقدمته : قال الامام العالم شيخ الاسلام جلال الدين السيوطي ، التقطت هذا الكتاب من كلام أبي الطيب ، ومن كلام الأشياخ رحمهم الله تعالى ، ومن كتب شتّى ، مبتغياً بذلك الأجر والثواب من الله تعالى ، وبه أستعين في جميع الحركات والسكنات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

« الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ، وأظهر (من الموجودات) ^(١٠) الكائنات ، وأبدع بحكمته ^(١١) في الطبائع الفاعلات والمنفعلات ، وأقام الأجسام المتألفات على أربع طبائع مختلفات ، وقدر المنافع والمضرات ^(١٢) ، والأسقام والصحات ، والحياة والممات . (وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عدد السكون والحركات) ^(١٣) .

(أما بعد) ^(١٤) فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب ، و (هذبت أغراضه) ^(١٥) ، وجعلته جامعاً في حال الاختصار ، لتروق ^(١٦) بايجازه القلوب والأبصار ، ويسهل تناوله للطالب ، ودرسه وحفظه للراغب ، وذلك بعد أن أمعنت النظر في أصول ^(١٧) دقائقه ، وخلّصت الصافي ^(١٨) من زبد حقائقه . فلما تجلّى بالحق القاطع ^(١٩) ، والبرهان الساطع أغرب بالمنتهى جميع أصول المناهج العتيقة ، وأعرب (نحو ^(٢٠)) المبتدئ فصول (الحوائج المفيدة . وسميته : كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، وقصدت بذلك وجه الله الكريم ، وعظيم

ثوابه الجسيم ، وقرنت ذلك بحسن الرجاء^(٢١) أن ينفع بما فيه . (وجعلت جملة الكتاب مائة وخمسة وتسعين باباً) (٢٢) .

لا يوجد لهذا الكتاب خاتمة ، كما لا يوجد ذكر للمخطوط الأصلي الذي أخذ منه ، ولا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ أو الطبع . ومما يلفت النظر في هذا الكتاب ، بالاضافة لما سبق ، الأمور الآتية :

- ١ - لغة المؤلف عربية فصحي ، وسالة من الأخطاء النحوية غالباً .
- ٢ - ورد في مقدمة الكتاب أنه يتألف من (١٩٥) باباً ، ولكن عدد الأبواب الفعلي (١٩٦) .
- ٣ - أسلوب المؤلف يدل على أنه فقيه ، يحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة .
- ٤ - تضم أبواب الكتاب مواضيع متنوعة ، تهم الطبيب المتعلم كما تهم الدجال المشعوذ .
- ٥ - في هذا الكتاب مزيج من الطب التقليدي والطب الشعبي ، بالاضافة إلى طرق مداواة تستند إلى استعمال السحر والتعاويد والحُجب والرقى .
- ٦ - من الممكن قسم هذا الكتاب إلى قسمين واضحين :
 - القسم الأول ويضم (١٠٥) أبواب ، وتمتاز كلها بأنها تحوي طرق مداواة تقليدية ، وقد وردت في هذا القسم أحاديث نسبت إلى الرسول (ﷺ) دون ذكر الاسناد .
 - القسم الثاني ويضم (٩٠) باباً ، يبتدىء بعلاج الطحال بالكتابة ، وفيه كثير من أشكال المداواة الروحية ، التي تعتمد على كتابة الحُجب والأوفاق والطلاسم ، وتعاويد ورقى تتألف من كلمات مبهمة يحرم الاسلام استعمالها .
- ٧ - يوجد في الأبواب الأخيرة من الكتاب (١٧٧ - ١٩٠) وصفات لا علاقة لها بعلم الطب والمداواة البشرية ، فهناك وصفات لعلاج جذري الفنم ، ومكافحة الحشرات والحيوانات الضارة ، وصيد الطير والأسماك ، وصنع

سوائل لحل الذهب والمعادن الأخرى، وصنع المداد بألوان مختلفة ، وعمل
الليق والصباغ - ودواء يحجب الثوب عن الحريق ، ودبغ الجلود ..

د - كتاب الرحمة في الطب والحكمة :

وهو من تأليف محمد مهدي بن علي الصنُّبُري ، اليميني المقرئ ، المتوفى
(٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) ونُسب خطأً للسيوطي .

ورد ذكر هذا الكتاب في الجزء الأول من كتاب كشف الظنون ، (ص ٨٣٦)
وقال عنه مؤلف الكتاب الأخير :

« وهو مختصر لطيف مفيد ، ذكره ابن الجزري في (طبقات القراء) ،
وابراهيم الأزرق في (كتاب تسهيل المنافع) . كما ورد في (معجم الأطباء)
للدكتور أحمد عيسى (ص ٤٩٦) ، بعض المعلومات الإضافية ، عن مؤلف
كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مقتبسة من كتاب (النهاية في طبقات القراء) ،
جاء فيه « وهو مقرئ فاضل ، وطبيب حاذق ، ألّف كتاب الرحمة في الطب
والحكمة . قرأ على أصحاب ابن شداد ، توفي سنة خمس عشر وثمان مائة ، ببلدة
المهْجَم من بيت حسين باليمن » .

ولمعرفة المؤلف الحقيقي لكتاب الرحمة في الطب والحكمة رجعت إلى فهرس
المكتبة الظاهرية ، والتي تضم أسماء مخطوطات الطب والصيدلة ، فوجدت في
فهرس الدكتور سامي حمارنة ثلاث مخطوطات أرقامها : (٥٥٥١ - ٥٦٢٠ -
٦٦٢٣) . ووجدت في فهرس الأستاذ صلاح الخيمي مخطوطتين أرقامهما :
(٤٣٥٨ - ١٠٩٨٦) .

كما وجدت في فهرس مخطوطات الطب والصيدلة ، للدكتور سلمان قطاية،
نسخة من كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، كانت محفوظة في المكتبة الشرقية -
الوقفية بحلب ، تحت رقم (١٧٩٩) . وبما أن جميع هذه المخطوطات محفوظة
حالياً في مكتبة الأسد بدمشق ، فقد قمت بدراستها، فوجدت مايلي بصورة موجزة:

١ - المخطوط رقم (٥٥٥١) :

وهو بشكل مجموع ، عدد أوراقه (٨٦) ق - قياس (٢١×١٤) سم -
- المسطرة (١٧ - ١٩) س - الخط نسخ عادي جميل ، المتن بالحبر الأسود
والعناوين بالأحمر . يضم هذا المخطوط كتابين :

أ - مختصر أقربازين ابن سينا ، مجهول المؤلف ، رقم الأوراق (١ - ٣٥) -
الناسخ خليل بن الأختاني ، تاريخ النسخ شهر رجب سنة ١٠٦٣ هـ .

ب - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مؤلفه محمد المهداوي بن علي بن ابراهيم
العنبري اليمني الهندي المتوفى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م الكتاب في الورقة
(٣٧) وينتهي بالورقة رقم ٨٦ - تم نقله على يد عبد السلام بن علي بن
علي بن محمد الدهنة سنة ٨١٥ هـ مقدمة الكتاب « الحمد لله الذي اخترع من
من العدم الموجودات ، وأظهر إلى الوجود الكائنات ، وبعد فهذا كتاب
مختصر وضعته في علم الطب ، وهذبت أعراضه وقرّبت أغراضه ،
وجعلته جامعاً في حالة الاختصار ليروق بايجازه القلوب . وهو في خمسة
أبواب : - في علم الطبيعة وما أودع الله فيها من الحكمة - في طبائع ومنافع
الأدوية والأغذية - فيما يصلح البدن في حالة الصحة - أو في المرض -
ومعالجتها » .

٢ - المخطوط رقم (٥٦٢٠) :

وهو من تأليف مهدي بن علي بن ابراهيم الصنوبري (العنبري) اليمني
الهندي المقري (محمد المهداوي) المتوفى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) .

مقدمة هذا المخطوط تنطبق على مقدمة الكتاب المنسوب للسيوطي . يقع
هذا المخطوط في (٢٥) ورقة ، قياس ٢٤×١٨ سم - المسطرة ٢١ سطرأ -
الخط نسخ حديث ، ويضم المتن النص الصحيح والكامل لكتاب الرحمة للصنبري .
ولا يوجد في الخاتمة اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ ، آخره : الصفة الثالثة لقطع
جميع العلل البلغمية ثم العلل السوداوية -

٣ - المخطوط رقم (٦٦٢٣) :

وهو مجموع يقع في (١٠٣) ورقات - قياس (١١,٥ × ١٨,٥) سم - المسطرة (١٩ - ٢٢) س . الخط نسخي واضح فيه أخطاء لغوية وإملائية كثيرة . يضم هذا المخطوط كتاب الرحمة في الطب والحكمة لمهدي بن علي العنبري اليمني، وذلك من الورقة (٢ - ٢٥) . ويوجد بعده فصل عنوانه (فصل شريف في الحبل) . أوله أن سليمان بن داود جمع الجان وكلمهم عن موانع الحبل . . وفي هذا المخطوط مقتطفات من مؤلفات عديدة لم يذكر عنوان كل منها ولا اسم مؤلفه .

٤ - المخطوط رقم (١٠٩٨٦) :

تأليف المحقق المدقق ، كنز الحكمة والمعرفة ، ومعدن اللطائف ، المتصوف الجهيد المعروف بالأزرق الشيخ اليماني . مقدمة الكتاب تنطبق مع مقدمة الكتاب المطبوع مع بعض التصرف ، وقد أشرت إليه بالهامشية . يعود المخطوط إلى القرن الماضي . الخط عادي ومستعجل ، فيه كثير من الأخطاء النحوية والاملائية .

عدد الأوراق (٣١) - القياس (١٦ × ٢٢) سم - المسطرة (٢٢) سطرأ . سقطت منه الورقة الأخيرة ، لذلك لا يوجد فيه اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ . وهذا المخطوط كتب بنفس القلم والزمان الذي كتب به المخطوط (٥٦٢٠) .

٥ - المخطوط رقم (٤٣٥٨) :

وهو مجموع مخروم الوسط والآخر . عدد أوراقه الباقية (٦٨) ورقة ، قياس (١٨ × ١٢) سم . المسطرة (١٩) سطرأ . يضم هذا المخطوط كتابين الأول (جامع المنافع البدنية للجويني) لم يذكر اسم مؤلفه ، أوراقه (١ - ٣٦) ويليهما فهرس في الورقتين (٣٧ - ٣٨) . أما الثاني فهو (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) ، من الورقة (٣٩ - ٦٧) وبعدها يوجد فوائد من غير الكتاب ، ويليهما وصفة سحرية تتعلق بالباه . والمخطوط نسخة أصلية قديمة وهو بحالة سيئة بتأثير الأرضة . وهو مخروم الوسط بعد الورقة (٤٥) ، ومخروم الآخر ، لذلك

لا يحمل اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ . والخط سيء مستعجل نسخي وبالمداد الأسود ، وبعض العناوين بالأحمر . وبعد فحص الفهرس العام ، والموجود في الورقتين (٣٧ و ٣٨) من هذا المخطوط ، تبين أنه كان بالأصل يضم ستة مؤلفات وهي :

- ١ - كتاب مفقود ، لم يذكر اسمه ، وضاعت فهرسته ، كما جاء في أسفل الورقة رقم (٣٧) .
- ٢ - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، يبدأ من الورقة ٣٩ ، وقد دُون على أحد وجهيها بخط حديث وحروف كبيرة (كتبه أبو حنيفة الكوفي) . ولم يرد في الفهرس رقم الورقة الأخيرة من هذا الكتاب .
- ٣ - كتاب براء ساعة لأبي بكر الرازي .
- ٤ - كتاب دستور الطب (يتألف من اثني عشر باباً) وهو مجهول المؤلف .
- ٥ - رسالة الفوائد (تتألف من اثني عشر باباً) مجهولة المؤلف أيضاً .
- ٦ - كتاب جامع المنافع البدنية (وفيه عشرون باباً) لم يذكر اسم مؤلفه .

مقدمة كتاب الرحمة في هذا المخطوط تماثل تقريباً مقدمة كتاب الصنبري ، وفيها أنه اختصر جملة الكتاب أيضاً في خمسة أبواب ، عدّها فجاءت كما وردت في المخطوط (١٠٩٨٦) . ولكن ما ورد بعد ذلك في المخطوط يختلف تماماً عما ورد في كتاب الرحمة في الطب والحكمة للصنبري . وأول ما يلفت النظر في المخطوط (٤٣٥٨) وجود طلاس وأوافق وتعاويز تماثل ما ورد في الكتاب المطبوع والمنسوب للسيوطي . وإذا كانت بعض العناوين في الكتاب المذكور تتفق مع ما ورد في المخطوط إلا أن الكتاب المطبوع فيه كثير من التفصيل والترتيب . وعلى كلٍ يمكن أن يعدّ كتاب الرحمة ، الوارد في هذا المخطوط ، مرجعاً لمن قام بتصنيف الكتاب المطبوع ودججه مع كتاب الصنبري ، مع كثير من الإضافات .

وفيما يلي فهرس كتاب الرحمة كما جاء في المخطوط :

الباب الأول : في علم الطبيعة ، وما أودع الله فيها من حكمة - فصل في الأخلاط الأربعة - فصل في الأمزجة .

الباب الثاني : فصل في الأغذية التي هي الطعام والادام والفواكه وغيرها - فصل في مفردات الأدوية التي يعالج بها المرض .

الباب الثالث : فيما يصلح للبدن في حال الصحة : في الأكل والشرب ،
تدبير الحركة ، تدبير السكون ، تدبير النوم ، تدبير اليقظة ، تدبير الجماع ،
تدبير الأهوية ، العوارض النفسية ، تدبير أعضاء البدن الصحاح ، تدبير
جملة البدن ، تدبير العين ، الأسنان ، تقليم الأظفار ، المعدة ، البول ، تغذية
الرأس .

الباب الرابع : تدبير الأمراض الخاصة بكل عضو من الرأس الى القدم :
داء الثعلب - صلاح الشعر - خفة الرأس ، الكلف ، الصداع ، وجع الأذن ،
العين ، الزكام ، الرعاف ، وجع الأضراس والأسنان ، نفخ الفم ، البخر ، بحة
الصوت ، السعال ، نفث الدم ، وجع الفؤاد ، القولنج ، أمراض المعدة ،
الفواق ، وجع السرة ، الطحال ، الاستسقاء ، الوباء ، اطلاق البطن ،
الزحير ، الموبدان ، سلس البول ، حصر البول ، الحصاة ، الباه ، خروج المقعدة ،
البواسير ، التواسير ، عرق النساء ، الملح ، داء الفيل ، الداحس .

الباب الخامس : في الأمراض العامة المتعلقة بالبدن : الحميات ، النافض ،
النشوان ، الدوران ، المالمخوليا ، الصرع ، العشق ، السكتة ، الفالج ،
البرص ، الجذام ، الجرب ، الحزاز ، الكف السوداء ، الثآليل ، البرد ، الحنازير ،
الدمامل ، القروح ، الجروح ، ضرب السياط ، العرق المديني ، حرق النار ،
عض الكلاب ، عضة الكلب الكلب ، السموم ، لدغ الأفاعي ، وجع المفاصل
والظهر ، اليرقان .

فصل في ذكر أصول كلها نافعة ، وفيه أربع صنفات لقطع العلل من الطبائع
الأربعة : الصفراوية ، الدموية ، البلغمية ، السوداوية .

هـ - رسالة (ما رواه الواعون في أخبار الطاعون) :

في مكتبة التكية الصديقية بحلب كان يوجد نسخة مخطوطة من هذه
الرسالة رقمها (١٣٨) ، وقد نقلت الى مكتبة الأسد ، وأصبح رقمها (١٧٣٦٥) .
وقد جاء في أولها :

« هذه رسالة في الطاعون (لجلال الدين) السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ .

١٥٠٥ م) ، اختصرها من كتاب (بذل الماعون) لابن حجر عليهما رحمة الله .
عدد أوراق الرسالة (١٢) ورقة ، القياس (٢٢×١٦) سم ، المسطرة (٢٤) سطرًا .
الخط نسخي حديث . لا يوجد تاريخ نسخ ولا اسم للناسخ . وقد جاء في
مقدمة الرسالة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . قال الشيخ العالم العلامة
جمال الدين ابن الشيخ الامام العالم العلامة كمال الدين السيوطي الشافعي
رحمه الله : الحمد لله مقدر الأرزاق والآجال ، والصلاة والسلام على سيدنا
محمد والصحب والآل . هذا جزء انتخبت فيه ما ورد في أخبار الطاعون ،
اختصرته من (كتاب) بذل الماعون ، لشيخ الاسلام ابن حجر . فأتيت
بالمقصود وحذفت الأسانيد ، وما وقع على سبيل الاستطراد » .

لقد جاء في كتاب كشف الظنون (ج ١ - ص ١٥٧٤) :

« ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، لجلال الدين السيوطي ، المتوفى سنة
٩١١ هـ . أوله الحمد لله يقدر الأرزاق والآجال . . .) اختصر فيه كتاب بذل
الماعون لابن حجر ، وأورد فيه مقامة ابن الوردي والصفدي والمقامة الدرّية . . .
وهذا يدل على أن ناسخ الرسالة قد أخطأ بكتابة اسم مؤلفه ، فجعله
جمال الدين بدل جلال الدين ، كما أخطأ باسم الكتاب فقال بذل الواعون بدلاً
من بذل الماعون .

تكلم السيوطي بعد المقدمة عن مبدأ الطاعون فقال : « أخرج الشيخان ،
واللفظ لمسلم ، عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله (ﷺ) قال : إن هذا الطاعون
رجز ، وبقيّة عذاب عذب به قوم ، وفي لفظ لهما قبلكم ، وفي لفظ له ، رجز
أهلك الله به بعض الأمم . وقد بقي في الأرض منه شيء يجيء أحياناً . ثم أورد
السيوطي ذكر الطاعون الذي أصاب قوم فرعون في مصر فأهلك منهم سبعين ألفاً .

أما فيما يتعلق بتعريف الطاعون فقد اعتمد السيوطي على حديث أخرجه
الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال : « قال رسول الله (ﷺ) فناء أمتي في الطعن
والطاعون ، قلنا قد عرفنا الطعن فما (هو) الطاعون ؟ - قال وخز أعدائكم
من الجن » .

— وعلى حديث آخر أخرجه أبو يعلى عن عائشة (ر) أن النبي (ﷺ) قال : « وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجن ، غدة كفدة الابل ، من أقام عليها كان مرابطاً ، ومن أصيب به كان شهيداً ، ومن فرّ منه كان كالفارّ من الزحف » .

— وأخرج البزاز عنها قالت : « قال رسول الله (ﷺ) الطاعون يشبه الدمل ، يخرج في الآباط والمراق ، وفيه تزكية أعمالهم ، وهو لكل مسلم شهادة » .

ويقول السيوطي إن هذه الأحاديث تبطل قول الأطباء « أن الطاعون مادة سمية تحدث ورماً قتالاً » ، وأن سببه فساد جوهر الهواء . وقد أبطل ابن القيم في الهدى قول الأطباء هذا بوجوه منها :

١ - وقوع الطاعون في أعدل الفصول .

٢ - وقوعه في أصح البلاد هواءً وأطيبها ماءً .

٣ - ومنها لو كان من الهواء لعمّ الناس والحيوان .

٤ - قد يأخذ الطاعون أهل البيت بأجمعهم ولا يدخل بيتاً يجاورهم .

٥ - يدخل الطاعون بيتاً فلا يصاب منه إلا البعض .

لقد عدد السيوطي الطواغين التي وقعت في بلاد المسلمين فقال :

— كان أولها طاعون عمّواس (أو عمّواس) . وهو موضع في بلاد الشام ، وكان في خلافة عمر (ر) .

— وفي كتاب ابن أبي حجلة : أول طاعون وقع في الاسلام على عهد النبي (ﷺ) ، في السنة السادسة للهجرة بالمدائن ، ولم يمت فيه على الأغلب أحد من المسلمين . ثم وقع بالكوفة في حياة ابن مسعود ، ثم في حياة أبي موسى الأشعري ، ثم وقع بها في إمارة المغيرة بن شعبه .

— وفي مدينة البصرة وقع طاعون الجارف ، وسمي بذلك لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض . وقيل كان في سنة ٦٩ وقيل سنة ٧٠ وقيل سنة ٧٦ هـ . ومات فيه لأنس بن مالك (٨٣) . ولدأ . قال سبط بن الجوزي : ولم يمت فيه من أهل الشام إلا اليسير منهم .

— ثم وقع الطاعون بمصر سنة ٦٦ ثم سنة ٨٥ . ووقع بالبصرة سنة ٨٧ ، وهو طاعون الفتیان .

لقد عدّ السيوطي عدداً كبيراً من الطواعين التي حلت بالبلاد العربية إلى أن قال : ثم كان الطاعون العام سنة ٧٤٩ هـ ، ولم يعهد له نظير في الدنيا ، فانه طبق الأرض شرقاً وغرباً ، ودخل مكة المشرفة ، ووقع في بعض الحيوانات أيضاً ، وعمل فيه ابن الوردي مقامته المشهورة ، وسماها (النبا عن الوبا) ، وتوفي مصاباً به .

— لقد أسهب السيوطي بالكلام عن عدم دخول الطاعون للمدينة المنورة ومكة المشرفة ، كما جاء في عدد من الروايات ، لكنه قال ان مكة دخلها طاعون سنة ٧٤٩ ، وعلل ذلك بأن حرمتها انتهكت بسكنى الكفار فيها .

— وتكلم السيوطي عن الوباء الذي انتشر في بلاد الشام ، عندما خرج إليها الخليفة عمر بن الخطاب (ر) لفتح بيت المقدس ، وكيف اختلفت الصحابة بين مؤيد لدخول البلاد أو الالتماع عنها . فجاء عبد الرحمن بن عوف (ر) وكان متغيباً ، فقال : « إن عندي من هذا لعلماً — سمعت رسول الله (ﷺ) يقول « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه . وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . » وقد روى أسامة بن زيد حديثاً بهذا المعنى .

— سأل بعضهم السيوطي عن الأسباب الحقيقية لمرض الطاعون ، أهو ناجم عن فساد الأمزجة والهواء ، أم عن اختلاف الغذاء ؟ — فأجابه شعراً :

بحمد الله يحسن الابتداء	وللمختار سيدنا الشناء
سالتَ فتخذ جوابك عن يقين	فما أوردت عندهم هباء
فما الطاعون أفلاك ولا أن	مزاج ساء أو قسد الهواء
رسول الله أخبر أن هذا	بوخز الجن يطعنتا العدا
يسلطهم إله الحق لما	بهم تفسو المعاصي والزنا
يكون شهادة في أهل خير	ورجساً للأولى بالشر باءوا
أتانا كل هذا في حديث	صحيح ما به ضعف وداء

— ثم اتهم السيوطي كل من يخالف هذا الاعتقاد فقال :

ومن يترك حديثاً عن نبي لما قال الفلاسفة الجفاء
فذلك ماله في العقل حفظ ومن دين النبي هو البراء

— يقول ابن الوردي في مقامته (النبا عن الوبا) ، والتي مطلعها « الله لي
عدّة من كل شدة » ، حسبي الله وحده ، أليس الله بكاف عبده . . . طاعون روع
وأما ، وابتدأ خبره في المظلمات . ياله من زائر من خمس عشرة سنة دابر . . .
ثم ذكر كيف أن الطاعون جاء من الصين إلى مصر ، ثم إلى فلسطين فدمشق ، ثم
طلب حلب ولكنه ما غلب . فهو والله الحمد والمنّة أخفّ وطأة . . . » ثم وصف ابن
الوردي أعيان حلب ، وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في علاجه
من أكل النواشف والحوامض . وقد تنغص عيشهم الهني ، بملاحظة التطين
بالطين الأرمني . وقد لطف كل منهم مزاجه وعدل ، ويخروا بيوتهم بالعنبر
والكافور والسعد والصندل ، وتختموا باليواقيت ، وجعلوا البصل والخل من
جملة الادام ، وأتوا بالأوراق والفاكهة ، وقدّموا للمرضى الأترج والتوت
وما شابههما .

ويؤكد السيوطي في رسالته أن أفضل وسيلة لعلاج الطاعون هي الدعاء
والصلاة على النبي (ﷺ) ، مع استعمال أزهار البنفسج . وختم رسالته بدعاء
مطلعه : هلم بنا نستغيث إلى الله في رفعه فهو خير مغيث .

و — كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية :

وهو كتاب مدرسي ، ألفه جلال الدين السيوطي ، وجعله على نمط كتاب
مفاتيح العلوم للعالم محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفى عام (٧٨٣ هـ
— ٩٩٧ م) .

يوجد من هذا الكتاب ، في مكتبة الأسد بدمشق ، خمس نسخ مخطوطة
وكتاب مطبوع على الحجر ، وفيما يلي أرقامها وأوصافها :

١ — المخطوطة رقم (٣٢٣٨) :

نسخة نفيسة ، على غلافها إطار نقوش مزخرفة . وهو من أوقاف أسعد
باشا العظم والي دمشق ، على مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا . على غلافها

الداخلي يوجد قيد تملك باسم علي العمري سنة ١٠٣٧ هـ ، وآخر باسم محمد بن عثمان الهوس سنة ١٠٦٤ هـ . والمخطوطة بحالة جيدة ، كتبت بخط نسخي جميل بالمداود الأسود ، وكتبت العناوين ورءوس الفقر بالمداود الأحمر . عدد الأوراق (١٠٣) ق - القياس (٢٠,٥×١٥) سم - المسطرة (٢١) سطرأ . نسخت في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٠٠٣ هـ .

٢ - المخطوطة رقم (٣٢٣٩) :

سجل على غلافها الداخلي أنها وقف للوزير محمد باشا والي الشام بتاريخ سنة ١١٩٠ هـ . وعليها قيد تملك باسم اسماعيل بن الجراح العجلوني ، المدرس تحت القبة في الجامع الأموي سنة ١١٣٠ هـ .

هذا المخطوط يقع ضمن مجموع ، ويشكل القسم الأول منه . لا يوجد في نهايته اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ . وهو من مكتوبات القرن الحادي عشر للهجرة . الخط نسخي وبالمداود الأسود والأحمر ، وعلى هامشه بعض التعليقات . العدد (٧٠) ورقة - القياس (٢١×١٤,٥) سم - المسطرة (٢٥) سطرأ .

٣ - المخطوطة رقم (٣٢٤٠) :

وهو من أوقاف المدرسة المرادية (بدمشق) ، وعلى الورقة الأولى قيد تملك باسم عبده محمد بن الحسين الكوراني سنة ١١٢٩ هـ . الكتاب مفروط الأوراق ويحتاج لترميم . الخط نسخي بمداود أسود والعناوين بالأحمر ، وعلى الهوامش كثير من التعليقات والفوائد ، وكتب في نهايته : كان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٩٦ هـ ، على يد علاء الدين البابلي الغمري الشافعي - عدد الأوراق (٨٩) ورقة - القياس (٢١×١٥) سم المسطرة (٢١-٢٥) سطرأ .

٤ - المخطوطة رقم (٣٢٤١) :

وهي المخطوط الأول ، في مجموع يضم كتاباً آخر للسيوطي عنوانه (مفحات الأقران في مبهمات القرآن) . والمجموع مفروط الأوراق ، ويحتاج

لصيانة ، وعلى هامشه تصويبات وتعليقات ، وعلى الورقة الأولى منه كتب أنه وقف باسم الحاج مصطفى بن درويش العلبي ، على من ينتفع به من طلبة العلم في ١٥ شوال سنة ١٢٤٥ هـ . عدد الأوراق ٥٤ (١ - ٥٤) - القياس (٢٠ × ٢٧) سم - المسطرة (٢٦) سطرًا .

٥ - المخطوطة رقم (٣٢٤٢) :

وهي بحالة جيدة ، كتب على الورقة الأولى منها : وقف عثمان الكردي على أرحامه ، وعلى طلبة العلم من المسلمين . وعلى الورقة الثانية ، وتحت عنوان الكتاب وفوقه ، كثير من الفوائد ، وكذلك على هامشه وعلى الورقة الأخيرة والغلاف . نسخ هذا المخطوط سنة ١١٧٥ هـ ، الخط نسخي جيد ، وبالمداين الأسود والأحمر . عدد الأوراق (٩٦) ورقة - القياس (١٦ × ٢١) سم - المسطرة (١٧) سطرًا .

٦ - كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية :

وهو مطبوع على الحجر عام ١٣٠٩ هـ ، وقد جاء على غلافه : إن السبب في طبعه ، لتعميم نفعه ، الأجل الأمجد ، الكامل المكرم ، محمد الشيرازي ، الملقب بملك الكتاب ، لازال لكل خير عام .

مقدمة الكتاب ، بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله على نعمه السابغة الشاملة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . شهادة بالنجاة من الأهوال كافلة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الأوصاف الجميلة الكاملة . . . وبعد . »

فلما ظهر لي تصويب الملحن علي في وضع شرح على الكراسة التي سميتها بالنقاية ، وضمنتها خلاصة أربعة عشر علماً ، وراعى فيها غاية الإيجاز والاختصار . وأودعت في طي ألفاظها ما نشره الناس في الكتب الكبار . بحيث لا يحتاج الطالب معها إلى غيرها ، ولا يحرم الفطن المتأمل لدقائقها من خيرها ، بادرت إلى ذلك ، قصداً لعموم العائدة وتمام الفائدة ، وإبرازاً لما أنا باستخراجه أخرى ، إذ صاحب البيت بما فيها أدرى .

كان كتاب (إتمام الدراية لقراء النقاية) كتاباً تعليمياً مرغوباً من قبل العلماء وطلاب العلم ، وذلك خلال الفترة الممتدة بين القرنين العاشر والرابع

عشر للهجرة ، بدليل أن أكثر مخطوطاته كانت موقوفة للتدريس، ومنسوخة خلال تلك الفترة . كما أن امتلاء هوامش تلك المخطوطات بالتعليقات والفوائد دليل أيضاً على كثرة استعمالها من قبل الأساتذة والطلاب .

مقارنة بين كتاب إتمام الدراية وكتاب مفاتيح العلوم :

إن كلا من هذين الكتاين يعتبر جامعاً مختصراً لمتون العلوم العربية ، الدينية والدنيوية . وقد قسم أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمي كتابه مفاتيح العلوم إلى مقالتين :

المقالة الأولى : خصصها لعلوم الشريعة، وما يقترب بها من العلوم العربية ، وهي تضم ما يلي :

- ١ - الفقه (١١) فصلاً • ٢ - الكلام (٧) فصول • ٣ - النحو (١٢) فصلاً •
- ٤ - الكتاب (٨) فصول • ٥ - الشعر والعروض (٥) • ٦ - الاخبار (٩) فصول • فصول

المقالة الثانية : خصصها كما يقول لعلوم العجم ، من اليونانيين وغيرهم من الأمم . وتضم ما يلي :

- ١ - الفلسفة (٣) فصول • ٢ - المنطق (٩) فصول • ٣ - الطب (٨) فصول •
- ٤ - الارتماطيقي (٥) فصول • ٥ - الهندسة (٤) فصول • ٦ - علم النجوم (٤) فصول •

— أما كتاب إتمام الدراية لقراء النقاية، فيضم العلوم الآتية ، وإلى جانبها عدد صفحات كل منها :

- ١ - أصول الدين (٣-٢١) • ٢ - علم التفسير (٢٢-٥٣) • ٣ - علم الحديث (٥٤-٧٩) •
- ٤ - علم أصول الفقه (٨٠-٣) • ٥ - علم الفرائض (٩٤-٩٦) • ٦ - علم النحو (١٠٦-١٢٥) •
- ٧ - علم التصريف (١٢٦-١٣٤) • ٨ - علم الخط (١٣٥-١٣٩) • ٩ - علم المعاني (١٤٠-١٥٩) •
- ١٠ - علم البيان (١٦٠-١٦٨) • ١١ - علم البديع (١٦٩-١٨٠) • ١٢ - علم التشريح (١٨١-١٩٠) •
- ١٣ - علم الطب (١٩١-٢٠٢) • ١٤ - علم التصوف (٢٠٣-٢٣٢) •

يقول السيوطي : إن هذه العلوم يحتاج اليها الطالب ، ويتوقف كل علم ديني عليها . إذ منها ما هو فرض عين : وهي أصول الدين والتصوف . ومنها ما هو فرض كفاية ، إما لذاته وهو التفسير والحديث والفرائض ، أو لتوقف غيره عليه ، وهو الأصول والنحو وما بعدهما . ومنه الطب الذي يُعرف به حفظ الصحة ، المطلوبة للقيام بالعبادات والقيام بالمعاش . .

وسنكتفي فيما يلي ببيان ما تكلم عنه السيوطي في علمي التشريح والطب : يقول السيوطي لقد قدّمت التشريح على الطب لأنه منه كنسبة التصريف للنحو . لأن التشريح يبحث عن ذات البدن وتركيبها ، أما الطب فيبحث عن الأمور العارض لها . ولما كان الطب لمعالجة الأمراض الظاهرة الدنيوية ، لذلك (يستحسن) أن يعقبه التصوف الذي تعالج به الأمراض الباطنة الأخروية .

لقد وصف السيوطي في مبحث التشريح عظام جسم الانسان والأعصاب والأوتار والعضلات والشرابين والأوردة والدماغ والعين . . وهو وصف سطحي يراد فيه تعداد ومعرفة أسماء مختلف أقسام الجسم وأجهزته .

لم يذكر السيوطي ، خلافاً لعادته ، المرجع العلمي الذي استقى منه هذا الوصف، ولكنه أورد ذكر جالينوس عند وصفه للقلب ، ثم تابع وصفه لبقية الأعضاء الداخلية من كبد وطحال وكليتين ومثانة وحالبين وأعضاء تناسل . وختم كلامه في التشريح بحديث منقول عن مسلم ، عن عائشة (ر) قالت « قال رسول الله (ﷺ) : إن الله خلق كل انسان من بني آدم على (٣٦٠) مفصلاً . فمن كبر الله وحمد الله ، وهلل وسبّح واستغفر ، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً ، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، عدد الستين والثلاثمائة ، فانه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » .

أما علم الطب فقد عرفّه السيوطي كما عرفّه ابن سينا بأنه حفظ صحة وبرء مرض . ثم قام السيوطي بتعريف بعض المصطلحات التي كانت متداولة في علم الطب ، ثم بيّن وظائف بعض الأعضاء فقال : الأركان : نار وهواء وماء وتراب - الغذاء : جسم من شأنه أن يصير جزءاً شبيهاً بالمغتذي - الخلط :

جسم رطب سيال يستحيل إليه الغذاء أولاً - الأخلاط هي : دم وبلغم وصفراء
وسوداء - إذا استقر الغذاء في المعدة انهضم فيصير كيلوساً ، أي جوهرأ
سيالاً يشبه ماء الكشك الثخين . ثم ينجذب لطيفه فيجري في عروق متصلة
بالأمعاء ، فيصل إلى العرق المسمى باب الكبد . . . الخ . إن هذا الشرح يدل
على أن السيوطي كان على اطلاع لا بأس به على علم وظائف الأعضاء
وأسباب الأمراض . وقد ورد في هذا البحث بعض الأحاديث الشريفة التي كان
قد ذكرها السيوطي في كتابه « المنهج السوي في الطب النبوي » .

لقد اقتبس السيوطي بعض أقوال موفق الدين البغدادي ، دون أن يذكر
اسم كتابه ، فقال : قال موفق الدين البغدادي « الداء خروج البدن أو العضو
عن اعتداله ، بإحدى الدرجات الأربع . ولا شيء منها إلا وله ضد ، وشفاء
الضد بضده . وإنما يتعذر استعماله (أي الدواء الشافي) للجهل به أو فقدده ،
أو موانع أخرى . أما الهرم فهو اضمحلال طبيعي ، وطريق إلى الفناء
ضروري ، فلم يوضع له شفاء ، والموت أجل مكتوب ، لا يزيد ولا ينقص ، وفي
كل شيء دواء إلا الخمر » .

ولدى ذكر الخمر استطراد السيوطي فروى عن مسلم أن طارق بن سويد سأل
النبي (ﷺ) عن الخمر فنهاه ، فقال : إنها أصفها للدواء ، فقال الرسول (ﷺ) :
إنها ليست بدواء ولكنها داء . وفي لفظ آخر : إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما
حرّم عليها . وروي عن السبكي في قوله تعالى « ويسألونك عن الخمر
والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » قال كل ذلك قبل التحريم ، فلمّا حرّمت
سلبت المنافع كل مصحح أو ممرض .

وختم السيوطي بحثه في علم الطب بجملة من الفوائد قال :

- قال ابن جماعة ينبغي أن يكون الطبيب صدوقاً عدلاً ، صاحب ذكاء
وخذق ومهارة وصبر ونصيحة .

- ومعلم الطب ينبغي أن يكون كذلك ، بعد استكمالهِ في صناعته ، والمتعلم
ينبغي أن يكون خبيراً ذكياً .

- يجوز أن يطبب الرجل امرأة وبالعكس ، بشرط حضور محرم أو نحوه . – يسنّ (للمريض) التداوي ، فان تركه توكلّا ففضيلة – إطعام المريض ما يشتهي (مستحسن) . – يكره الدعاء بالضرر وتمني الموت لأجله .
- ليس يصيب المؤمن وَصَبٌ وَلَا تَعَبٌ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلاّ كفرّ بها من خطاياها ، أو رُفّع بها درجات ، كما صحّ بذلك الأحاديث .
- من ذلك يتبين لنا أن السيوطي كان فقيهاً ، وأديباً لغوياً أكثر منه طبيباً . بينما كان الخوارزمي عالماً رياضياً وفيلسوفاً متكلماً ، ولم يشتهر بالفقه ولا الطب ، وإن كتب فيهما .



□ الحواشي :

- | | |
|---|--|
| ١١- حكمته . | ١ - أترج : كباد . |
| ١٢- المضاربات . | ٢ - إثمّد : الكحل الأسود . |
| ١٣- جملة غير موجودة في المخطوط المذكور . | ٣ - إهليلج : ثمر نبات هندي له عدة أنواع . |
| ١٤- وبعد . | ٤ - سنوت : شجرة . |
| ١٥- وهذبت به أعراضه وقربت أغراضه في المخطوط المذكور . | ٥ - سواك : أعواد الأراك . |
| ١٦- ليروق . | ٦ - فاغية : زهر الحناء . |
| ١٧- أحوال . | ٧ - قسط : نبات له عدة أنواع يستعمل جذره . |
| ١٨- المعاني . | ٨ - كبات : ثمر الأراك . |
| ١٩- ونوضح بالبرهان . | ٩ - ألقاموس المحيط للفروزي ، مؤلفه مجد الدين محمد ابن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) . |
| ٢٠- (فحوى للمستندى وصول) . | ١٠- بدل هذه الجملة (الى الوجود) في مخطوطه كتاب الصنبري (رقم ١٠٩٨٦) . |
| ٢١- الرجاء فيه (هذه التصويبات من المخطوط المذكور أيضاً) . | |
| ٢٢- بدل هذه الجملة (واختصرت جملة الكتاب في خمسة أبواب) . | |

